الأدب في سير الأعلام :

# ٨ ـ تولســـتوى

[ ثمة من النعم السوامح في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه ]

للأستاذ محمود الخفيف

## بين العبث والندم

لن يصبر الفتى على المقام طويلا ببسنايا ، فان المدينتين : موسكو وبطرسبرج ما تزالان تدعوانه إلى مفاتنهما وزينتهما ، وما إن يأخذ الفتى حظه من اللهو في إحداهما أو في كليهما حتى ينطلق إلى ياسنايا يطلب الهدوء ويأمل في التوبة ، ويرجو أن يتفرغ لشؤون ضياعه ، وعلى هذه الحال قضى الفتى ثلاث سنوات يلقى به طول عبثه إلى الندم ، ويؤدى به سأمه من ندمه إلى ما كان فيه من عبث ؛ وكان في حاليه يمثل حياتي أخوته . فاذا أمعن في عبثه وجونه وعدم اكتراثه لشيء مثل حياة سيرجي ، وإذا ندم وتقشف وزهد في الحياة الدنيا وزينتها عاش عيشة ديمتري

ولم يقف عبثه عند حد في العاصمتين ؛ فهو في ليله يسرف في الميسر ويغشى أمكنة اللهو وينتقل بين «صالونات» الارستوقراط وأماكن الفجريات الفنيات ، يقضى أرب مشاعره من الجمال والبهجة ، وغاية بدنه من الفسوق والرجس ، وهو في نهاره يستمتع بالصيد أو بركوب الصافنات الجياد . أو يملأ فراغه بلعب الورق أو الشطرنج أو بكتابة ما يداخله من ندم في دفتر يومياته ، أو باللعب ساعة على البيان ، وهو في ليله وفي نهاره يشرب الخمر ويصيب ما يلذه من طعام في أشهر مطاعم المدينة وأغلاها ثمناً . يفعل ذلك في رفقة من صحابته يعبثون ويلهون كما يعبث ويلهو ، ويفوزون منه بما ينفق عليهم من ماله ...

ويحاول أحياناً أن يصنع ما نصحت به عمته تاتيانا إليه ، وذلك أن يرتبط بفتاة ذات خلق وكرم محتد ، فيدور بعينيه في سهرات الأرستقراط يطالع وجه الأوانس ، ويخفق قلبه لهذه أو لتلك ، ولكنه لا يلبث حتى ينطلق تحت ستار الظلمة إلى حيث يلقى بنفسه بين ذراعي إحدى الفجريات !

ويحلم تارة أحلام الزواج فيهفو قلبه إلى الآنسات في صحبة أمهاتهن وقد تبرجن وأبدين زينتهن ، ويتظرف في حديثه ويظهر أكثر ما يستطيع من مظاهر الارستقراطية والنبل ، ولكنه سرعان ما ينصرف عن هذا إلى ما يوسوس به الشيطان من فجور وإثم يطفىء به ضرام بدنه القوى الذى ما زال يلتهب من شهوة

ويعود إليه تارة تخيله أنه محب وأنه أسير هوى غادة عرفها في موسكو هي الأميرة شرباتوف ، وإن كانت هذه الغادة لتجهل كل الجهل ما تحدثه به نفسه من حب ، ولا تفطن إلى ما يخيل إليه أنها بعثته في نفسه من عاطفة ...

وكذلك تساوره أحياناً رغبته في الكمال ، تلك الرغبة التي تسلطت عليه زمناً في قازان ، ولكن الكمال هنا يتخذ منحنى جديداً غير منحنى الثقافة والمعرفة ؛ فهو يريد اليوم أن يكون رجل مجتمعات ، يشار إليه في المنتديات والصالونات ، ويريد أن يكون حديث مجالس يتنعت إليه ذوو المكانة ويصفونه بأحسن أوصافهم من النبل والتهذيب والظرف واللباقة ؛ ولكنه لا يستقر على هذا الاتجاه ، وما هي إلا أن توسوس له أقل المغريات حتى يعود إلى مجونه وجنونه ، ليعب منهما ما يشاء له شبابه ثم يعمد إلى دفتره فيثبت فيه ما يخالجه من ندم ومن تأنيب منه لنفسه ؛ وهكذا يحيا الفتى في المدينتين حياة لا تختلف عن حياته في قازان إلا بما يكون من إفراط في اللهو وإسراف في المال .

ولن يزال الفتى كالفراش الهائم يطير من زهرة إلى زهرة ، ومن ثمرة إلى ثمرة ، أو يقع على اللهب ليرتد عنه ثم يجذبه الضوء فينجذب إليه ، ولا يجد ما يبثه خلجات شعوره ونوازع وجدانه إلا دفتر يومياته ؛ كتب في هذا الدفتر سنة ١٨٥٠ يقول وقد كان في موسكو « إن هذه ثالث سنة لي أقضي شتاءها في موسكو دون أن أكون في منصب ما ؛ هنا حيث أقضي حياة سخيفة لا غناء فيها ، حياة فارغة لا تهدف إلى غرض ؛ ولم أحي هذه الحياة لأن كل امرئ في موسكو يفعل مثلما أفعل ، ولكن لأن مثل هذه الحياة هيأت لي أسباب المسرة » .

وبلغت حاله من السوء في أواخر تلك السنة بما أسرف على نفسه في الميسر أن أصبح يطلب القليل من المال فلا يكاد يجده

ولذلك فكر فى أن يشغل منصباً يرتزق من وظيفته ، واتجه إلى إلى منصب مدير البريد فى مدينة تولا ؛ ولكنه لم يجد من ذوى النفوذ من أقربائه من أعانه على تحقيق هذا المطلب ، كما لم يجد فى نفسه المقدرة على أن يعمل عمل الوظفين فانصرف عن هذا المتجه ...

ولكن ماذا عسى أن يصنع وقد اشتدت به الحاجة إلى المال وفدحته أعباء الدين ؟ ... يا عجباً ! إنه يريد أن يحذق لعب الورق ليكسب المال من الميسر ، عسى أن يعوض شيئاً مما خسره فيما سلف من لعبه ، ولكنه ما لبث أن رأى أن الميسر ما كان وسيلة لكسب المال وإنما هو كما عرف من قبل وسيلة لاتلافه ؛ ثم إن الفتى يضيق بحياته هذه حتى مايطيق صبراً فيفد إلى ياسنايابوليانا

ويقضى الفتى فى ضيعته بضعة أشهر لا يكدر عليه صفوه ولا يقطع هدوءه إلا إلحاح عاطفته الحيوانية عليه وظمأ بدنه ذلك الظمأ الذى لايفتر ؛ ولكنه يغالب تلك العاطفة بكل ما فى طوقه من عزم ، ويصبر على ذلك الظمأ ما وسعه الصبر ؛ ثم لا يلبث حتى يجد نفسه وقد غلب على أمره فعاد أكثر مما كان نهماً وطمعاً . والحق أنه كان يعانى كثيراً من الضيق من جراء فشله كلما فشل فى مغالبة هذه العاطفة ؛ أشار إلى ذلك مرة لأحد مترجمى حياته بعد أن تقدم به العمر فذكر أنه ما من شىء كان أشق على نفسه من محاولته قهر هذه العادة التى تسلطت عليه فلم يقو على دفعها ؛ ولقد كان يتأثم منها ويندم أشد الندم كلما منى بفشل جديد ، تجد ذلك فى مثل قوله سنة ١٨٥٠ « إنى أعيش عيشة بهيمية ، ولقد هجرت كل ما عسى أن يشغلنى من عمل ؛ وإن ذلك ليكدر روحى كدراً شديداً » .

ولا يكاد الفتى يجمع من المال قدراً حتى يعود إلى موسكو فى شهر مارس سنة ١٨٥١ ؛ وفى نفسه هذه المرة أن يبتعد عن كل مايشين لأنه اليوم يريد أن يصل إلى مكانة مرموقة فى المجتمع وأن يشغل منصباً ذا خطر وأن يتزوج من ذات ثراء ومجد ...

وراح ينشى أواسط الارستقراط يشهد الحفلات والولائم ، يهمه أن يتعرف إلى العلية وذوى المكانة والنفوذ ؛ إذا جلس فى حلقة أخذ بقسط موفور من الجدل والحديث ، وحاول ما استطاع أن يكون هو الذى يدير الكلام ويصرف وجوهه ، وحرص على أن تكون آراؤه مثيرة للدهشة أو للانتباه أو المعارضة ، واجتهد أن يبرز أقصى ما لديه من علم فيما يتشقق إليه الحديث من مسائل فيفيض ويشرح وجهة نظره ويسرد الأمثلة ويبسط الحجج فى لهجة المتمكن القادر .

وعادت تطوف برأسه أحلام الزواج ؛ وعاد يتذكر ماتمنته له عمته ثانيانا ؛ فقد كان أجل ما تمنته له فى رأيها أن يتزوج بفتاة عظيمة الثروة وأن يمتلك من رقيق الزراع أكثر ما يستطاع أن يمتلك ؛ ولكنه يرى أن مثل هذا الرباط لن يكون إلا بالحب ، وهذا ما لا يحس أنه انتهى فيه إلى رأى ...

وكان لا يزال يطمع أن يعينه بعض ذوى النفوذ والجاه من أقربائه أو أصدقائه على أن يظفر بمنصب من مناصب الدولة ينعم فيه بالمال والجاه ، ولكنه لم يصل من ذلك إلى كل ما يريد ..

وكان قد صمم عند مجيئه إلى موسكو ألا يقرب الميسر وقد أوصته عمته أن يتحرر من هذه العادة المتلفة المال الموبقة للروح ؛ ونفذ الفتى أول الأمر ما عقد عزمه عليه وابتعد عن الميسر كل الابتعاد كأنه أمر ينفر منه بطبعه ؛ ولكن ما كان أعجب عودته إليه بعد قليل يأمل من جديد أن يجد فيه مخرجاً مما هو فيه من عسر ؛ ولعب ما وسعه اللعب وخسر خسارة كبيرة ، ولكن الخسارة لم تزده إلا إسرافاً فى اللعب وعدم اكتراث لما يكون للعب من عاقبة حلوة كانت أو مرة قاسية المرارة ؛ ولقد بلغ به الأمر أن رهن ساعته يوماً ليدفع ثمن معطف ذى فراء أراد أن يدخل على روحه بعض البهجة بلبسه والتنبل به وإن صغرت من المال يده ...

وضاق صدره بحياته على هذه الصورة وعزا هذا الاضطراب إلى ضعف عزيمته . كتب فى دفتره يقول « إنى ألاحظ أن أهم عاطفتين تتسلطان علىّ هما الميل إلى اللعب ثم الغرور » ؛ وراح يتهم نفسه كل يوم فى دفتره ويندم ماوسعه الندم ؛ وجعل لكل يوم من أيام الأسبوع فى دفتر آخر فضائل يؤديها وأخذ يشير بعلامة إلى ما قصر فى أدائه حتى لا يعود إلى التقصير فى مثل ذلك اليوم من الأسبوع التالى ؛ ثم لاذ الفتى بالدين فزهد الحياة أياماً فصام وصلى وألف دعاء يدعو به الله ليخرجه مما هو فيه ...

ولمحت للفتى بارقة أمل ؛ لم لا يجعل الأدب حرفة له ؟ ألم تكن

عمته ناتيانا على حق حين قالت له ذات يوم « إني أعجب ياعزيزي ليو كيف لا تكتب رواية ولك مثل ما لك من خيال ؟ » .

وكان الفتى يقرأ القصص أكثر ما يقرأ ، ولم ينقطع عن القراءة مهما شغلته الشواغل أو ملأ حياته اللهو ، ولا يزال إعجابه بروسو عظيما ، وكذلك لا يزال يجعل لدكنز منزلة عظيمة فى نفسه ؛ أما الكتاب الروس فقد كان يقبل منهم على بوشكين وجوجول إقبالا شديداً ، وكان لثانيهما تأثير قوى فى خياله وعقله؛ وبدأ يلتمع اسم ترجنيف وكان أكبر من تواستوى بعشر سنوات ، وقد نشر أول كتبه سنة ١٨٤٧ وهو مذكرات رجل صيد ، وكان لهذا الكتاب كذلك تأثير عميق فى خيال ليو ووجدانه ، وبخاصة ما أظهره مؤلفه فى فنه القوى المحكم من حياة رقيق الأرض ... وقرأ الفتى لغير هؤلاء الكتاب كتب شلر وكتب ستيرن وغيرهما من فحول القصة والشعر .

وتصادف أن كانت قصة دكنز العظيمة دافيد كوبرفيلد تنشر يومئذ تباعا فى إحدى المجلات فأحدثت فى نفسه أثراً لم تحدث مثله قصة غيرها وظلت لها فى نفسه المكانة الأولى حتى آخر حياته

وماذا عسى أن يكتب الفتى ؟ ذلك ماحيره أول الأمر حيرة شديدة ؛ أيصف حياة الفجر كما فعل بوشكين وإنه اليوم بهم عليم ؟ أيكتب قصة عمته ناتيانا ؟ لا إنه لا يميل إلى هذه ولا إلى تلك فماذا يكتب ؟ أيصف زيارته بالأمس لتلك الأميرة شيرباتوف التى ظن أنه يحبها ؛ وأقبل الفتى فوصف هذه الزيارة ، ولقد نشرت هذه القصة الصغيرة حديثاً بعد أن عثر عليها ورأى الناس أول عمل أدبى لنابغة كتاب القصة فى القرن التاسع عشر فإذا بهذه البا كورة تنطق بكثير من دلائل عبقريته ...

ويقول ليو فى دفتره « إن الوصف ليس كل شيء .. كيف ينقل المرء إلى القارئ شعوره ؟ » . قال ذلك لأنه كان قد اعتزم أن يجعل الوصف غايته من الكتابة فيصف كل ماتقع عليه عيناه

ثم بدا له وكان أثر دافيد كوبرفيلد قوياً فى نفسه أن يكتب أيام طفولته ، وانكب على الكتابة كل صباح من الساعة الخامسة حتى الحادية عشرة حتى أتم بأكورة آثاره التى كتب لها الخلود .

ولكن حياة اللهو وا أسفاه تعود فتصرفه عن هذا الجد . فيقبل على لذاذاته ويسرف من جديد فى مجونه وعبثه ، ثم لا يجد آخر الأمر خيراً من أن يلوذ بضيعته من هذه الحياة التى سئمها وسئم نفسه بسببها فيعود إلى ياسنايا فى صيف عام ١٨٥١ ولم يتزوج من ذات ثراء ولم يظفر بمكانة فى المجتمع ولا بمنصب خطير من مناصب الدولة ، ولم يتحرر من اليسر ولا مما يوهن عزمه من نوازع بدنه القوى الذى لا تهدأ حيوانيته ...

وأقام فى القرية أياماً يخالجه شعور الندم على ما كان من عبثه الذى أسرف فيه على نفسه وشعور الحسرة على ما آلت إليه حاله من عسر ومن دين ، وينظر اليوم إلى هؤلاء الرقيق الزراع الذين أراد إصلاحهم بالأمس فيؤلمه أنه انقلب اليوم مبدداً لما تنتجه أيديهم من خير ؛ فلا هو أصلحهم ولا أفاد من كدهم إلا ذلك المال الذى يذهب هباء فى اليسر والترف والغرور والفسوق .

وينقاد إلى جموح بدنه فى القرية كما كان يفعل فى المدينة ، لا يهدأ هذا البدن ولا ينطفئ لهبه ؛ ولكنه يشعر باشمئزاز شديد ذات ليلة إثر فعلة من فعلات الشباب فعلها تحت جنح الظلام ، وكأنما استيقظت فى نفسه مشاعر جديدة فى تلك اللحظة جعلته ينكر هذا الذى فعل إنكاراً شديداً كان أكثر قيمة من ذلك الندم الذى كان يخالجه كل مرة ثم لا يلبث أن يموت .

كره الفتى حياته كرهاً شديداً ، وضاق بالمقام فى ياسنايا وفى موسكو وفى بطرسبرج ، وما له غير الرحيل شفاء لنفسه ومنجاة لروحه ، فليرتحل إلى حيث لا يجد شيئاً يذكره بالذى كرهه أشد الكره وأنكره كل الإنكار من مواطن مجونه وعبثه وفراغ حياته .

( يتبع )

الخفيف


## إعلان

تقبل العطاءات بادارة المخازن والمشتريات بوزارة الزراعة بالدقى لغاية ظهر يوم ١٠ إبريل ١٩٤٧ عن أعمال التطهيرات الصيفية لعام ٤٧ / ١٩٤٨ بتفاتيش سخا ومحلة موسى والسرو .

وثمن القائمة ٣٠٠ مليما لتفتيش السرو و ٢٠٠ مليما لكل من تفتيش سخا ومحلة موسى بخلاف ٣٠ مليما أجرة البريد .

٦٩٧٧